من آفات هذه المدنية

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

نحن اليوم فى مدنية عجيبة لم يعرفها تاريخ العالم من قبل . هى مدنية تسيطر عليها الآلات الدائرة والسائرة فى البر والبحر والجو ، وقد اهتدت هذه المدنية إلى كشف أسرار الطبيعة فطوت المسافات وجمعت أطراف العالم . فاليوم يستمع المستمع فى القاهرة — مثلا — إلى متحدث أو مغن فى أقصى الأرض ، أمريكا أو استراليا ، كما يستمع إلى جليسه . ويكلم من هو فى أبعد البلاد كما يكلم القريب منه الذى يبصره ويسمعه .

وكل هذه الأعاجيب من الآلات السائرة والطائرة والجهازات الناقلة الأصوات اللغية المسافات — كل هذه يسخرها الإنسان لمقاصده ، ولكنها هى كذلك تسخر الإنسان وتذهب بكثير من سعادته وسلامته وسكونه وراحته . وإن ترك أمرها فوضى عاش الإنسان بها شقيا . لا أتحدث فى تسخير هذه الآلات للحرب والقتل وما إليهما ؛ ولا أذكر ما لقيه العالم من شرها وضرها وفظاعتها وأهوالها ، ولكن أقصد إلى أمر واحد أقصر عليه الحديث وهو أمر يبدو يسيراً ، أو يخفى خطره وأثره ، وهو عند التفكير عظيم خطير ، أعنى راحة الإنسان وسكونه فى ضوضاء هذه المدنية التى لا تفرق بين بعيد وقريب ، ولا تميز بين نهار وليل . الإنسان فى شقاء ظاهر وخفى من هذه المدنية ، مسلوب أحب الأمور إليه وألزمها له : الراحة والسكون والدعة والطمأنينة ، والحرية فى تصريف وقته ، والاختيار فى ترتيب أعماله على الأوقات .

أحسب أن كثيراً مما يصيب الناس فى أجسامهم وأنفسهم من علل ، وكثيراً مما يقع فى أفوالهم وأفعالهم من زلل ، يرجع إلى هذا الداء الدخيل — إلى قلق الإنسان وتعبه واضطرابه فى ضوضاء هذه المدنية شاعراً أو غير شاعر .

وقد حدثنى أحد الأطباء أن أمراضاً كانت نادرة فى العصور الماضية فشت اليوم بين الناس بالجهد الجسمانى والنفسانى الذى تكلفهم به المعيشة فى العصر الحاضر .

والناس فى هذا الأمر يختلف حظهم من التعب والتكدر على اختلاف نفوسهم وثقافتهم وأعمالهم ، فمنهم من يتطلق فى هذه الضوضاء صائحاً مصفقاً مسروراً لا يقدر أثرها فى نفسه وجنايتها عليه . ومنهم من يسأم ويرغم ويشقى قليلا . ومنهم من هو أكثر نصيباً من الشقاء وهو رجل الفكر ، فهو يشقى بها على قدر احتياجه إلى الهدوء والسكون ليعمل ويفكر ثم يستريح من عناء العمل والفكر .

ولعل شر ما يبتلى به الإنسان فى راحته وسكونه هذه الجماهير (الميكروفونات) التى تضاعف هذه الضوضاء كأن الإنسان لم يكفه ما يحيط به من جلبة وصخب فهو يزيدها أضعافا بالجماهير ليعيش فى أظلم من الضوضاء الطبيعية وهو منها فى شر مستطير .

وهذه الذبيحات المسلطة على خلق الله بالليل والنهار ، تحرمهم القرار ، وتحتهم السكون ؛ هى إحدى آفات هذه المدنية ، ومن أضرها بالإنسان — إن لم يحسن الإنسان تدبيرها — هذا المذياع آلة عجيبة خطيرة تسمع كل ما فى العالم من أصوات ، وتأخذ منها ما شاءت أو ما شاء صاحبها . فى سلطانها كل الأصوات المذاعة فى العالم . فتمثل إنساناً جاهلا أحمق يعطى هذه القوة ، ويمكن من هذه المعجزة ، يستطيع متى شاء أن يسلط على جيرانه ما يشاء من أصوات العالم مجهوراً بها مدوية . وهذه آلة يسيرة ، وتسيرها العلم والصنع يسراً ورخصاً . فكل عاقل وأحمق وعالم وجاهل وغنى وفقير يستطيع أن يسيطر على الناس بهذه الآلة فيحرمهم الدعة والقرار ، وينغص مضاجعهم بالليل والنهار ، ويصير بلاء مسلطاً لا حيلة فيه ولا مفر منه ولا قدرة عليه .

تمثل إنسان هذا العصر ، هذا المخلوق البائس الذى يعيش فى المدن — تمثله فى النهار يسير فى خطر من الترامات والسيارات وما إليها ، وقد صبت على رأسه أصوات المنبهات والمحذرات والزامرات والصافرات على اختلاف الأصوات والنغمات ، فهو يمشى فى خطر أن يداس بهذا السيل المستمر من العجلات ، وينبه إلى هذا الخطر أن نفع التنبيه بهذه المنبهات المفزعة التى تتنافس فى رفع الصوت لتسمع السابلة وسط هذه الضوضاء العظيمة ، وتتنافس فى رفع الصوت ليمتاز صوت كل واحدة من الأخرى . والإنسان المسكين يخطو مرة ويقف أخرى وينظر أمامه حيناً وحيناً وراءه ومن يمينه وشماله .

إن هذا البلاء عظيم يحتمله الناس بما اعتادوه وألفوه ، وبما استكانوا له واستسلموا وصبروا عليه يأساً من الابتعاد عنه والخروج منه .

وهذا الإنسان البائس يرجع إلى داره مكدوداً — ولا أقول يرجع إلى مسكنه فليس هنا سكون — والدور في المدن متراصة متلاصقة ذات طبقات كثيرة فيسلط عليه تاجر من أهل الحي مثلا مجهراً يعلن به عن بضاعته .

وأشهد لقد سمعت أكثر من مرة إعلان تاجر عن سلعه بمجهر ، يسخر قارئا يقرأ القرآن الكريم حيناً ، ثم منادياً ينادي في الناس بما عنده من جبن وزبد وزيتون وغيرها .

وقد سألت أين هذا البلاء المبين فقيل بعيد جداً . فقلت هذا ما يصيب البعيدين منه فكيف بالقريبين ! تساءلت أليس في البلد قانون ؟ أليس لقوانينها سلطان ؟ ألا يشعر الناس بما هم فيه من شقاء ؟ ألا يعبرون عن شعورهم ؟ ألا يثورون على هذا العذاب المسلط ويعملوا على الخلاص منه ؟

وقد أدخل التجار من حيث لا يشعر الناس بدعة هذه المجاهر في الحفلات ولا سيما في المآتم . فترى جمعاً في سرادق يسمعه ويتعداه صوت متكلم أو قارىء أو مطرب ؛ ولكن البدعة التي استحكمت سريعاً تقضي باتخاذ المجهر فيسلط هذا البلاء على الداني والقاصي من خلق الله . وربما يستمر ساعات متوالية فلا يستطيع الإنسان أن يستريح أو ينام أو يقرأ أو يكتب . فأي شر أكبر من هذا ؟

وقد سمعت مرة صوتاً فظيعاً يسمع على بعد أميال فنظرت فإذا جماعة قد وسمتهم حجرة واحدة وقد وضعوا مجهراً خارج الحجرة وأرادوا أن يتصدقوا على الناس بإشراكهم فيما يسمعون ، والصدقة خير ما كان أعم وأشمل ، فليرفع هذا المجهر ما وسمه المجهر والتبليغ . وأما من يضيق بهذا الصوت فلا وزن له عند الله ولا عند الناس ؛ إن ضاق بصوت القرآن فلا دين له . وإن ضاق بالغناء فلا شعور له .

وسمعت مرة صوتاً عالياً مدوياً في شارع من شوارع القاهرة التجارية المزدحمة وفهمت مما سمعت حفلة لعيد ميلاد طفلة ، والخطباء يتبارون في التهنئة . وعرفت أن أبا الطفلة لم يولد له منذ سنين . ولهذا كان الاحتفال وتباري الخطباء . هذا يسمعه السابلة في شارع من الشوارع المكتظة التي لها من ضوضائها ما يغنيها عن كل ضوضاء .

ثم تمثل هذا الرجل المكدود الذي تتناوبه أصوات السابلة في الطريق يأوي إلى داره يلتمس الراحة ليلا — ودع راحة النهار — فإذا جيرانه قد فرغوا من أعمالهم ومن طعامهم وجلسوا إلى المذياع ، وتنافسوا في الجهر بما يذاع ، إما رغبة في الصوت الرفيع ، وإما إعجاباً بالغناء أو القصة ، وإما تصدقا على الجيران المحرومين من هذه النعمة. فيرسلون أصواتاً تسمع على أميال ، وقد يكون المستمع واحداً أو اثنين أو فئة قليلة ، وعطلة الإذاعة أصلحها الله تعين هؤلاء السفهاء على إقلاق الناس وإزعاجهم وتكدير صفوهم وتنغيص عيشهم ، والحيلولة بينهم وبين ما يريدون من استراحة أو عمل بما تمد هؤلاء السفهاء به من أغان وأقوال يرغب فيها الجهلة ويرغب فيها العلماء ويحبها السفهاء ويكرهها الحكماء . ثم تمد لهم الإذاعة في صحبتهم بإذاعة حفلة غناء تدوم ساعات ، أو نقل قصة تمثيل إلى ما بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر أي إلى ما قبل الفجر بساعتين في الصيف .

ولو أن القائمين على الإذاعة فكروا فيما يصيب الناس من هذه الإذاعة لأقلوا منها وجعلوا لها حداً لا تتجاوزه .

ما حاجة الناس إلى إذاعات بعد منتصف الليل؟ بل ما حاجتهم إلى إذاعة بعد العاشرة ؟ ألا يفكر القوام على الإذاعة في سوء تصرف الناس بهذه الآلات التي صار ضررها أكثر من نفعها ، وأنها ربو على نفسها ؟ ينبغي أن تعرف أخلاق جمهورنا وعاداتهم حين توضع برامج الإذاعة .

ثم لماذا لا تستعمل الإذاعة في تعليم الناس حسن الاستعمال وحسن الاستماع ؟ لماذا لا يذاع على الناس كل أسبوع تحذير من الجهر بالإذاعة وإيذاء الناس بها ، ويعرف الناس بالترغيب والترهيب ما يجب عليهم لينتفعوا بما يسمعون أو يلهوا بما يذاع عليهم ، في غير إخلال براحة الناس ، ولا جناية على من لا يريد أن يستمع ومن أحوج إلى إمضاء وقته بالتفكير والعمل ، أو الراحة .

ثم أين قوانين الحكومات لتحمي الناس من هذا الشر الذي يزداد كل يوم ذيوعاً وإيذاء وإضراراً . أين وزارة الشئون الاجتماعية لتفكر في هذا الأمر وتروّي فيه وتصف له دواءه بالنصيحة أو بالعقاب .

إن الأمر خطير كل الخطورة ، وأثره في معيشتنا وفي أحوالنا النفسية بعيد . فليتعاون الناس على درء هذا الشر الذي لا يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ...

عبد الوهاب عزام